



يظن بعض من لم يدرس النفس البشرية أو يدرس تاريخ الفرق والأديان والمذاهب والنحل أن في الإمكان رفع الخلاف بين الناس لا نقول: بين البشر بعامة، فهذا من المستحيلات، وكل العقلاء يدركون ذلك، ولكن بين شعب واحد أو دين واحد أو نحلة واحدة.

فقد خلق الله الخلق متفاوتين في الأفهام والطبع، متخالفين في الآراء والاعتقادات، مثلما خالف بينهم في الصور والهيئات "وَمِنْ آيَاتِهِ حُكْمُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاحْتِلَافُ أَسْنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ" (الروم: من الآية 22).

وقد ركب فيهم الغرائز والشهوات، فمن غلت عليه شقوته وأهواؤه فإنه يسير في هذا الطريق "وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى فَسَنَيْسِرُهُ لِلْعُسْرَى" (الليل: 8-10).

ونجد العجائب من انحطاط بعض الناس وعبادتهم للمخلوقات والجمادات.

فإذا أردنا التخصيص، وصار الحديث عن المسلمين، فسنجد الأفهام المتفاوتة في فقه الإسلام، وسنجد التقصير في الإهاطة بالشريعة والعقيدة، وسنجد الأهواء التي تبعد صاحبها عن سلوك الطريق المستقيم.

فذو الطبع المتشدد يحاول جر النصوص من القرآن والسنة إلى ما يريد، ذو الطبع المتساهل الضعيف يحاول جر النصوص إلى ما يهوى، وأعداء الإسلام لا يقترون في بث الشبهات ودفع الأموال في سبيل ذلك.

ولكن مع هذا الواقع فهناك الطريق الأعظم واضحًا مستيناً، ملذاً آمناً ينضوي المسلم تحت لوائه، وقد انضوى خلال جميع القرون منذ بدء الدعوة الإسلامية وهو تيار عريض وليس بالقليل، وأعني تيار أهل السنة فهم الأكثرية الغالبة، وهم الذين بنوا الحضارة الإسلامية، وهم بناة الدول الإسلامية الكبيرة التي حكمت مئات السنين كالدولة الأموية (في المشرق والمغرب)، والدولة العباسية، والدولة العثمانية، عدا عن الدول القوية التي نشأت في صنع من أصقاع العالم الإسلامي ولها دور حضاري وعسكري في الدفاع عن الإسلام كالمرابطين والموحدين في المغرب والأندلس أو الدولتين (النورية والصلاحية) في الشام ومصر، أو الدولة الغزنوية في أفغانستان والهند...

فهذا هو التيار الأعظم الذي يعد مرجعيته الكتاب والسنة ثم الصحابة والتابعين وأئمة الفقه والحديث كالأئمة الأربع، والأوزاعي، وابن حزم، والبخاري، ومسلم، وبقية أصحاب الكتب الستة وغيرهم في كل عصر إلى يومنا هذا.

ورغم وجود الخلاف داخل هذا التيار في بعض الأمور العقدية والفقهية، ولكن يبقى الحوار الهدائى وإبداء وجهات النظر داخل هذا التيار هو السبيل الصحيح للمحافظة عليه، وليس الجفاء والمخاصة والاتهام.

وأما إذا أردنا التضييق والانحصار فسنجد أنفسنا قلة قليلة محشورة في زاوية من زوايا هذا التيار الكبير، وهذا ليس من هدي الإسلام ولا هدي التعاون على الخير والأمر بالمعروف.

وعندما قال الإمام ابن حزيمة: "من لم يقر بأن الله على عرشه قد استوى فوق سبع سماواته فهو كافر حلال الدم.. علق الإمام الذهبي: "قلت: من أقر بذلك تصديقاً لكتابه ولأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمن به مفوضاً معناه إلى الله ورسوله، ولم يخف في التأويل ولا عمق، فهو المسلم المتبوع، ومن أنكر ذلك فلم يدر بثبوت ذلك في الكتاب والسنة فهو مقصّر، والله يعفو عنه، ومن أنكر ذلك بعد العلم، وقفًا غير سبيل السلف الصالح، وتمعقل على النص، فأمره إلى الله نعود بالله من الضلال والهوى" (1).

والقصد هو تكثير إلا من رحم ربك فهذا الذي يجب أن نتنبه إليه، ونعي خطورة التفرق ضمن هذا التيار الكبير، ونعتني بالوسائل التي تؤلف ولا تباعد.

ولكن هذه الدعوة إلى التألف لا تفي التلقيق بين ما هو صحيح وغير صحيح، بين السنة والبدعة فهذا أيضًا لا يقرب ولا يؤلف، فلا بد من جمع الناس على الحق إن أمكن أو نعمل بـ"سددوا وقاربوا".

وهناك أمور كثيرة لم يختلف عليها أهل القرون المفضلة، وهناك السنن التي أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم باتباعها، ومنها سنة الخلفاء الراشدين، فهو الميزان الذي نرجع إليه، والتمييع والتلقيق لا ينتج شيئاً قوياً، بل نستمسك بالحق الواضح وندعو إليه الآخرين بالحسنى.

أما الخلاف بين الملل والنحل فهذا لا يتركه الناس، والله سبحانه وتعالى هو الذي يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، بل هذا أحد أدلة البعث في القرآن الكريم "وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ" (النحل:38، 39).

(1) سير أعلام النبلاء 14/373